مقدمة

الجزائر من الأسماء المحفورة فى الوجدان الإسلامى والعربى والغربى ، فمنها ومن دول المغرب العربى انطلق المسلمون إلى الشواطئ الأوربية ينشرون روح الإسلام السمحة ومن سكانها : البربر كان جل الجيش الإسلامى الذى عبر المضيق إلى بلاد الأندلس (أسبانيا) ووصل حتى الحدود الفرنسية حاملاً مشعل الحضارة الإسلامية التى أضاءت ظلمات أوربا ومشت بعدها إلى طرق النهضة والتقدم .

وهذا البلد كان الصخرة الصلدة ، التى تكسرت عليها كل الهجمات الصليبية ، وكان خط الدفاع الأول عن حياض الإسلام ، لذا كان الثأر الفرنسى من الجزائر الأقوى ، وكانت الهجمة الأخيرة عليها ، هى الأشرس حيث كانت تهدف إلى تنصيرها ، وتغيير لسانها ، ولكن الإسلام حفظ الجزائر خلال مائة وثلاثين سنة من محاولات المسخ الحضارى الذى فرضته فرنسا آنذاك ، كان الإسلام هو السلاح الوحيد لدى الشعب الجزائرى عربه وبربره لمواجهة الهجمة الصليبية الفرنسية .

وكانت عناصر المقاومة الجزائرية التى أرساها عبد الحميد بن باديس ، وهو الأب الروحى للحركة الإسلامية الحالية فى الجزائر ، وقامت جمعية العلماء ببثها فى وجدان الجماهير : « الإسلام دينى ، والعربية لغتى ، والجزائر وطنى » . فالإسلام كان هو عنصر توحيد الجزائريين ، لذا جاء فى المقدمة بدلاً من الانتماء القومى الذى يفصل بين العرب والبربر ، الإسلام فى الجزائر يختلف عن باقى الدول الإسلامية لأنه يعبر عن الدين والقومية فى وقت واحد .

وكل حركات المقاومة الجزائرية بدءا من الأمير عبد القادر الجزائرى وحتى حرب التحرير التى انتهت عام ١٩٦٢م ، رفعت الشعارات الإسلامية ونهلت من مبادئ الإسلام ، ووظفته لصناعة الثورات وتعبئة الجماهير ، لذا كان يطلق على ثوار الجزائر لقب « المجاهدون » حتى أن صحيفة جبهة التحرير الوطنى يطلق عليها اسم « المجاهد » مما يعنى أن الإسلام دوره فى تشكيل الشخصية الجزائرية ، فهو الذى حض الوجدان الجزائرى ضد التنصير وبه تم توريث حلم التحرير .

ولكن بعد تحقيق الحلم ارتكبت جبهة التحرير الخطيئة الأولى فى حق الجزائر ، وذلك عندما نحت الإسلام جانبًا بعدما أدى غرضه التحريرى ، وظهرت فيما بعد النظريات المصنعة فى موسكو والعواصم الشيوعية والتى تشع بالأفكار الماركسية ، التى يلفظها الجسد الإسلامى السوى فور محاولتها التسلل إليه ، والتأثير على عناصر إدراكه لذا كانت المقاومة الإسلامية للرئيس بن بيللا قوية وظفها الرئيس الثانى للجزائر هوارى بومدين للانقلاب على بن بيللا وقال فى معرض حيثياته لأسباب الانقلاب العسكرى ، إنه جاء من أجل الدفاع عن إسلام الجزائر ، نعم تحالف العلماء مع الجيش ضد توجهات بن بيللا العلمانية والماركسية ، وتلك كانت خطيئة العلماء لأن بومدين لم يكن جادًّا فى طرحه هذا ، ولكنه وظف الإسلام أيضًا لصالح طموحاته وبعدها أسر الإسلام فى نظام حكمه الشمولى العسكرى ، وحاصر التيارات الإسلامية وكانت تلك أيضا خطيئة بومدين ، لأنه اعتقد أن الخمول الإسلامى الذى صاحب حكمه كان انتصارًا لنهجه ، ولكن ما حدث كان عملية تجديد الخلايا فى دم الحركة الإسلامية عملية تخمير لأحداث جسام ، قد تقرر مصير النظام الحاكم مستقبلاً وهو الأمر الذى فطن إليه بومدين فى نهاية حكمه حيث أعطى متنفسًا للإسلام فى محاولة لامتصاص الغضب الإسلامى المكبوت وتأجيله بعض الوقت حتى يتسنى له التفكير فى مخرج من ذلك المأزق ، ولكن الموت كان الأسرع حيث اختطفه بعد أن وضع البلاد فى مأزق خطير .

وجاء بن جديد ليجد أمامه ميراثًا من الحكم الشمولى البغيض طال القريب والبعيد ومجتمعًا يموج بالثورة ، لذا لم يجد بُدًّا من توظيف الإسلام من جديد لمواجهة الإسلاميين وهى الخطيئة الأولى له فاستقدم الشيخ الغزالى والكثير من العلماء المشارقة وخصوصًا من مصر لتقديم بديل إسلامى رسمى للجماهير حتى تنفض عن التيارات الإسلامية التى يموج بها المجتمع الجزائرى ، ولكن الشعب كان قد شب عن الطوق واستفاد من تجارب الماضى ، ولم يكن على استعداد لاختبار نوايا الشاذلى بن جديد الذى جاء للحكم ، والفساد قد طال كل مؤسسات البلاد مما سهل الطريق أمام الأزمة الاقتصادية للتمكن من عنق النظام وبالتالى إعطاء الفرصة للإسلاميين وغيرهم من المعارضين لكشف السلطة أمام الجماهير فمعهم أكثر من دليل .

وعندما جاء عام ١٩٨٨م ، كانت البلاد قد وصلت إلى درجة الغليان ، وأحدثت المظاهرات الغاضبة فى البلاد صدمة هائلة للسلطة ، التى لم يكن أمامها خيار سوى إثبات

حسن النية فى الإصلاح ، وكانت البداية فى النظام السياسى نفسه والخضوع لتيار الديمقراطية والتعددية الحزبية الذى اجتاح العالم أجمع وليس الجزائر فحسب وبمجرد الموافقة على قوانين التعددية ،تبارت الجماعات والتيارات المختلفة للحصول على تراخيص لممارسة العمل الحزبى ، وبلغت عدد الأحزاب الجزائرية إلى حوالى ٥٠ حزبًا وكانت جبهة الإنقاذ الإسلامية ، هى القوة الأولى للتيار الإسلامى التى حصلت على ترخيص حزبى ، وحاول بن جديد أن ينسق معها ويستقطبها إلا أنه فشل فى ذلك ، حيث وجد أنه من الصعب ترويضها ، لذا لم يكن أمامه إلى التعاون مع الشيخ محفوظ نحناح ، الذى كان قد أفرج عنه فى بداية توليه السلطة فأسس نحناح « حركة المجتمع الإسلامى » لينافس جبهة الإنقاذ الإسلامية ، ثم توالت الأحزاب الإسلامية مثل النهضة ، وحزب التجديد ، وحزب الأمة وغيرها من الأحزاب الإسلامية الأخرى .

ومحاولة بن جديد التنسيق مع نحناح ، ومهاجمة الأخير لجبهة الإنقاذ كانت خطيئة بن جديد الثانية ، لأنها أدت إلى اندفاع الجماهير نحو جبهة الإنقاذ أكثر لأنها معارضة بشكل واضح للسلطة ، وترفض فكرة التوظيف لخدمة النظام والجماهير قد ملت الخداع ، وكفاها تجربة تصل إلى ٣٠ عامًا من الأفكار المستوردة ، لم تُنبت عودًا أخضر واحدًا فى أرض الجزائر ، بل أخذت الأخضر واليابس ، وتركت البلاد تتضور جوعًا ، فلماذا لا يجرب الشعب البديل الإسلامى ؟ ولذا ابتعدت الجماهير عن حركة المجتمع الإسلامى « حماسى » التى تعبر عن الفكر الإسلامى الوسيط ، وكان يمكنها عبور المأزق الراهن ، فالغرب لا يخشاها كالإنقاذ مثلاً ، والشعب كان سيدعمها من أجل مستقبل أفضل ، ولكن ظهور « حماس » كمطية للنظام المشلول أفتدها الدعم المطلوب ، وبدت جبهة الإنقاذ بمثابة المهدى المنتظر الذى سيخلص البلاد من الفساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى . وعندما جاءت نتيجة الإنتخابات البرلمانية فى جولتها الأولى لصالح جبهة الإنقاذ ذُهل الجميع بدون مبرر رغم أن المقدمات كانت توحى بذلك ، فجبهة الإنقاذ كانت قد فازت فى الانتخابات البلدية ، وتقدمت على جبهة التحرير الحاكمة . كما أن قدرة الإنقاذ على تسيير المظاهرات ، وتحدى السلطات كانت أحد أدلة قوتها ، ولم يكن من المتوقع أن تضعف الضربات المتوالية لقيادات جبهة الإنقاذ من قوتها ، بل شدت من عزيمتها وازداد التعاطف الجماهيرى معها أكثر لأنها ظهرت دائمًا كضحية وكمضطهدة وشهيدة من أجل

الشعب وكانت قمة الخطايا من جانب السلطات الجزائرية مصادرة نتائج تصويت الشعب ، ولا يهمنا وصفه هذا العمل هل هو دستورى أم أبيض أم أخضر وما حدث فى الجزائر ليس انقلابًا ، بل هو مجرد استتباع لمشكلة تاريخية لازالت تتوالد ، على حد قول وليد نويهض فى جريدة الحياة يوم ١٩٩٢/١/٢٤م ، وليس غريبًا أن يحصل ما حصل فى الجزائر ، بل الغريب أن لا يحصل ، فالانقلاب على نتائج الانتخابات والنكوص إلى لغة الحرب الأهلية والإيغال فى سياسة الانفكاك التاريخى عن المجتمع ، وخياراته السياسية ليس سمة تقتصر على الدولة « فى الجزائر » بل سمة عامة تتصل بموضوع « الدولة » ودورها فى العالم الثالث .

وخطيئة الانقلاب الجزائرى الجديد ، مهما كانت مبرراته ، لن تؤثر فقط على الجزائر بل ستطول كل العالم الإسلامى حيث ستدفع الحركات الإسلامية إلى ممارسة العمل السرى والعسكرى ، ضد الأنظمة الحاكمية بعدما ثبت عدم مصداقية الديمقراطية وأنها تعنى أن يتداول الجميع السلطة عدا التيار الإسلامى حتى ولو كان ذلك التداول قد جاء عن طريق صناديق الانتخابات ، وطبقًا لخيار الشعب ، وكان الأجدى إعطاء الفرصة للإسلاميين لممارسة الحكم ، وهنا كان سيحدث أمران : الأول نجاحهم فى إدارة أزمة البلاد ، والخروج بها من الهوة السحيقة ، وهذا هدف نبيل – فى حد ذاته – ولا يهم من قام به ، والثانى فشلهم ، وبالتالى سقوط مشروعهم أمام الجماهير مما يفقدهم التعاطف والتأييد .

وفى كل الأحوال كان التيار الإسلامى سيتبلور فى شكل سياسى منظم ومحكم ويتعامل مع الواقع السياسى ، من خلال الاحتكاك مما يؤدى إلى تعقله وكبح جماح ثوريته ، التى تتعامل مع العوالم المثالية على الورق فقط ، وأظن من لاحظ الخطاب السياسى لجبهة الإنقاذ بعد إعلان فوزها سيجد أنه اتجه إلى المزيد من العقلانية والتسامح السياسى ، بل إن كلمات الجهاد وغيرها من المصطلحات الإسلامية ، قد تراجعت تمامًا ، ولكن لأن معظم المراقبين وأكثر الباحثين يتربصون بالحركة الإسلامية لم يلتفتوا إلى ذلك ، بل ركزوا كل جهودهم على اصطياد كلمة من هنا أو هناك ترددت على أى منبر مسجد فى الجزائر ، لإلصاقها بجبهة الإنقاذ ، ومحاولة تشويهها ، وإرهاب العالم الداخلى والخارجى منها ، وهذا الأمر سيؤدى حتمًا إلى ضياع الحقيقة وسط الزيف الإعلامى والجهل المعلوماتى للكثير من الباحثين ، الذين يتعاملون مع الحدث الجزائرى من خلال معلومات صحفية فقط دون الغوص

فى تاريخ وفكر الحركات الإسلامية فى الجزائر ، والاعتماد على رد هذه الحركة إلى الأزمة الاقتصادية ، والبطالة وهى المقولة الغربية التى تم ترويجها وتصديرها إلينا ، لنظل طول الوقت لا نعرف الحقيقة .

والرد على تلك المقولة لا يحتاج مجهودات لإثباتها ، فلو كانت الأزمة الاقتصادية وراء « التطرف الإسلامى » كما يقولون فلماذا لا نجد حركات إسلامية فى بنجلاديش وهى من أفقر الدول الإسلامية أو فى الصومال وجيبوتى وموريتانيا مثلاً ، ولماذا نجد حركات إسلامية فى دول غنية مثلما حدث فى إيران وهذا الكتاب ، هو محاولة متواضعة لسد النقص فى هذا المجال حيث وجدت أن بعض الكتب التى صدرت عن الجزائر وأحدثها ، لا تزيد عن بعض الموضوعات الإنشائية والتى تصلح كمقالات صحفية ، جاء بعضها كصرخة لإنقاذ الديمقراطية ، سواء من السلطة أو الإسلاميين ، والبعض الآخر لم يزد عن السرد التاريخى قبل ثورة التحرير ، وعند الانتقال للفترة الحالية لا تجد معلومات شافية ، ولا تحليلات وافية .

أما بعض الدراسات والأبحاث التى نشرت فى مجلة السياسة الدولية ، أو جريدة الأهرام عن مركز الدراسات الاستراتيجية فهى تتسم فى معظمها بقلة المعلومات والأخطاء الكثيرة ، والاعتماد على المادة الصحفية للاستنتاج مما يفقدها المصداقية ، وإن كانت تتسم بهياكل منهجية محكمة ، وتستخدم تعبيرات أكاديمية من الصعب على الجماهير أن تفهمها ، وأعتقد أنها المعنية بالأمر ، لا النخبة المثقفة فقط ، ورغم ذلك نجد أن هذه الهياكل خاوية من المعلومات والأفكار والتحليلات ، وإن كانت هناك بعض الدراسات جيدة وترقى إلى الحقيقة والمصداقية ، وسوف نتناول بعضها من خلال تلك الدراسة ، وعمومًا فإننا سنتطلق فى تلك الدراسة من حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها وهى أن الإسلام شئنا أم أبينا هو حضارة المنطقة وقدرها ، وأنه هو ضابط إيقاع المجتمع وحركته ودوراته الحضارية ، لذلك عمد الغرب على إرجاع الإسلام إلى الخلف فى الدول الإسلامية ، ومنعه من التقدم للعب دوره الناظم والموحد ، مما أدى إلى انفكاك حركة التاريخ عن حركة المجتمع ، فانقسم الأخير على نفسه مستعيدًا التناقضات –العصبات السابقة على نشوء الإسلام ونزوله .

ومن هنا يرى وليد نويهض أنه « ليس غريبا أن يحصل إلى انقلاب « الدستورى » على نتائج الاقتراع فى الجزائر ، ويتم النكوص عن الوعود ويحصل الارتداد عن نهج تسليم السلطة سلمًا للطرف الفائز فى الانتخابات ، الغريب حقًا أن لا يحصل ما حصل ، فلو تم الانتقال السلمى للسلطة وأتيح للرئيس الجزائرى السابق الشاذلى بن جديد أن يفى بوعده لأمكن القول : إن « الانقلاب » الحقيقى والتاريخى قد حدث فعلاً ، ولكن « الخارج » كان بالمرصاد لـ « الداخل » ولعبت الدولة وظيفتها اللاتاريخية ، وانقلبت على المجتمع ، وما حصل فى الجزائر أكد أن المعضلة هى معضلة « الدولة » قبل أن تكون معضلة الديمقراطية وأكد أيضًا أن الديمقراطية مسألة أكبر وأعقد من أن تحسم فى صناديق الاقتراع فهى أساسًا نتاج تاريخى يجب حسمه فى المجتمع أولاً ثم بعد ذلك يتم نقله إلى السياسة »[1] .

ويتناول هذا الكتاب بالدراسة والتحليل من خلال الوثائق والدراسات دور الإسلام فى الحياة الجزائرية فى الماضى والحاضر وأثره فى صناعة الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية ، مع دراسة المناهج الفكرية للأحزاب والجماعات الإسلامية الحالية فى الجزائر ، فى محاولة لاستشراف المستقبل المجهول لهذا البلد الشقيق بعد إعلان الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد استقالته يوم ١١ يناير ١٩٩٢م ، تحت ضغط العسكريين ، للحيلولة دون وصول جبهة الإنقاذ إلى السلطة ، والتى تقرر حلها فيما بعد نكاية فى الجماهير التى تحدت السلطة ورجالها .

كما أنه محاولة جادة لتشخيص الأزمة الجزائرية وردها لأسبابها الحقيقية بعيدًا عن التشخيص الاقتصادى للأزمة والذى يقفز على أصل المشكلة ويؤدى إلى وصاية السلطة على الشعب ، فلب المشكلة فى الجزائر ليس الأزمة الاقتصادية ، بل هو الأزمة الثقافية دون التقليل من شأن العامل الاقتصادى .

والفترة التى مرت بها الجزائر فى الحياة الديمقراطية منذ انتفاضة ١٩٨٨م وحتى تشكيل مجلس الدولة فى بداية ١٩٩٢م ، تؤكد أن الشعب الجزائرى بأكثريته كان يطالب أولا – بمعالجة الإشكاليات الثقافية ، وفى الانتخابات المحلية ١٩٩٠م ثم البرلمانية

(١) وليد نويهض : ليست المشكلة فى الديمقراطية أو عليها ، إنها فى الدولة التى انفصلت عن مجتمعها الحياة اللندنية ٢٤ يناير ١٩٩٢م .

نهاية عام ١٩٩١م صوّت الناخبون للخيار الثقافى الذى يشمل الحرية ، والحقوق ، والأخلاق ، والهوية الروحية ، فجبهة لإنقاذ فى حملتها الانتخابية فى انتخابات المحليات ١٩٩٠م ، والتى أيدت فيها الجماهير الإنقاذ أعلنت عدم امتلاكها لمفتاح سحرى لحل الأزمة الاقتصادية ، وأن الشعب سوف يجوع أكثر من الآن ، ورغم ذلك اختارهم الجمهور لأنهم لم يخدعوا المواطنين ، أو يستغلوا معاناتهم على عكس أسلوب السلطة التدليس منذ التحرير ، وحتى الانقلاب مما جعل الجزائريون يكفرون بالنظام الكاذب ويختارون الذين يطالبون بإصلاح الإنسان قبل المصانع . وهو ما ستراه جليا فى فصول الكتاب .

القاهـرة - مايو ١٩٩٢ **محمد العباسى**

obeikandl.com